١٧٥
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الخامسة ـ العدد العاشر (صفر ـ رجب ١٤٤٦)

الميرزا مهدي الإصفهاني و مرحلة جديدة في المعرفة الدينية[١]

حسن طارمی

الخلاصة: يعتبر الميرزا مهدي الإصفهاني مؤسساً في نظام المعرفة الدينية. وإن إطلاق هذا العنوان كان بداعي إبداعه أسلوباً حديثاً وتجديدياً وتأسيسياً لمنظومة خاصّة بالمعرفة الدينية. وهذا الأسلوب المعرفي الخاص به يُعدّ أسلوباً فذًّا لا سابق له، وهو في بعض الأحيان أسلوب باعث للحياة في هذا الإطار.. ولاريب في أنّ هذه التعاليم تكون إيجابية تارةً، وسلبية في تارة أخرىٰ.. أمّا التعاليم الإيجابية فتتعلّق مثلاً بكونها شلّالاً أو معيناً للمعرفة الصحيحة، وكذا باعتبارها من المعطيات الوحيانية... مضافاً إلىٰ الاهتمام - كل الاهتمام - التمسّك بالمبيّن الحيّ والحاضر للقرآن، وكذا القول بأنّ علم الدين علم جديد متجدّد، فيما العلم البشري علم قديم متهالك، إذ الدين ناظر إلىٰ جميع أبعاد المعرفة. وأنّ المعطيات الدينية قائمة علىٰ العلم والعقل.. أما التعاليم السلبية؛ فمن قبيل: أنّ المنظومة المعرفية البشرية في تباين واضح مع المعارف الوحيانية، إذ الفلسفة البشرية غير قائمة علىٰ العقل والعلم. مضافاً إلىٰ الدوافع الخاصّة بنشر الفلسفة في العالم الإسلامي، ومواجهة الحكّام المعارف الأئمة عليهم السلام. وفضلاً عن عرض الميرزا الإصفهاني تبويباً وتنظيماً جديداً في مباحث المعرفة الدينية، فإنّه قد أورد منظومة معرفية لها أهمّيّتها البالغة.

الكلمات المفتاحيّة: الميرزا مهدي الإصفهاني، المعرفة الدينيّة، المعرفة الفطريّة، اهميّة العقل، نقد الفلاسفة.

---

١. المقال أعلاه ورد ضمن تكريم السيد جعفر سيدان (دام ظلّه). القي هذا البحث في مجلس تجليل المرحوم الميرزا مهدى الإصفهاني (ذو الحجة ١٤٣٢ ق) في مؤسسة معارف أهل البيت عليهم السلام بقم المقدسة.

المقدّمة

إنّ إجلال مشايخ السلف عمل مفيد وضروري. ولعلّ البعض يعمد في هذا الصدد إلىٰ الإفراط والمبالغة، وقد تؤثر بعض الحواشي في أصل الغاية والمراد، إلّا أنّ العمل بحدّ ذاته يبقىٰ ضرورياً ومفيداً. وعلينا أن نعلم أنّ كلّاً من مشايخ السلف الخاصّين بنا له منزلته وموقعه في قافلة المعرفة.. ممّا يلزم بنا النظر إلىٰ الميراث العلمي وجملة التقارير والنقول الواردة، عن كل واحد منهم، ثمّ إعمال مزيد من الدقّة في إصدار الحكم عليه [فلا يكون ثَمّ تجاهل في البين، ولا تصنيم ولا تقديس ليس في محلّه].

ولقد كان لكلٍّ من المشايخ وأعيان علماء الشيعة - في دائرة المعرفة - ميراث، يلقي بظلالة على الأجيال المكلّفة بالتعرّف إليه، فيضيف لهم ما يضيف، فكان لابدّ لنا من التعرّف علىٰ ميراث الأعيان والمشايخ وعلىٰ ماذا أبقوا لنا....

وإنّ أحد البحوث المهمّة في إطار العلوم الدينيّة والتيار التعليمي لأئمة أهل البيت عليهم السلام؛ إعادة قراءة السيرة العلمية والأخلاقية الخاصأة بكبار العلماء، و التعرف إلىٰ طبيعة منجزاتهم، و ماهية سلوكياتهم، ومدىٰ تأثيرهم، و إلىٰ كيفية مواجهتهم أو تعاملهم مع مختلف المسائل والأحداث في عصرهم. و علىٰ هذا؛ فإنّ المؤتمرات العلمية كانت لفرض فهم واستيعاب منزلة المرحوم الميرزا الإصفهاني في ساحة جغرافيا المعرفة الدينيّة، مضافاً إلىٰ ضرورة مواصلة انعقاد هذه المؤتمرات والمجالس، وفهم الخُطىٰ التي اتّخذها هذا الرجل الجليل في التقدم بهذه القافلة ثم الاعتبار بها...

وإن جميع مخاطبي هذا البحث يعلمون - إجمالاً - مَن كان الميرزا مهدي الإصفهاني.. وعليه؛ فإننا نستطيع البحث في عدة جوانب.. وأحدها: أن ننظر إلىٰ حوزة النجف، فنتعرّف إلىٰ واحدٍ من الطراز الأوّل في الحوزة النجفية، فنتعرف - تبعاً لذلك- إلىٰ طبيعة أهمّيّة حوزة النجف، و إلىٰ أنّها قد خرّجت خلال تاريخها المستمرّ منذ ألف عام جملة نجوم؛ و إنّ إحداها الميرزا مهدي الإصفهاني. و إن نظرنا من زاوية أخرىٰ.. رأينا أستاذاً بارزاً قدِمَ إلىٰ مشهد المقدسة، فنشر بساط العلم والتعليم؛ فربّىٰ تلامذة وأصحاباً.. وإن أمعنّا النظر في الأسلوب العلمي والسلوكي والأخلاقي، أحرزنا نقاطاً مفيدة...

ومع أن المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني قد اهتم مزيد الاهتمام بتربية وتخريج التلاميذ، فإنه قد حرّر المزيد من المؤلّفات.. وبالنظر إلىٰ أنه قد توفّي عن عمر ناهز الثالثة والستّين، فإنّه على هذا الأساس يكون في عداد العلماء والمفكرين المكثرين في مجال التأليف... طبعاً ليس من طراز العلامة الحلي والعلامة المجلسي وبقية العلماء كثيري التأليف في العالم الإسلامي...

ولنا - في زاوية أخرىٰ - أن نعرّف المرحوم الميرزا الإصفهاني باعتباره «مؤسّساً»، أي في منظومة المعرفة الدينية.. فهو مؤسّس في هذا الإطار. والمؤسّس هو المبتكر لتعاليم أساسية أو يأتي بجهاز علميّ خاص، علىٰ أن يكون هذا الابتكار والخلاقية لهما القدرة والقوّة ما يجعلها صامدة قائمة إلىٰ مدّة مديدة، وتأخذ لنفسها هيئة المنظومة ذات القابلية على الانتشار.

ومثال ذلك؛ أن نعدّ الشيخ مرتضىٰ الأنصاري مؤسّساً، إذ أن نظام (علم الأصول) في حقبته الجديدة مرهون به... وها هم رجالات الحوزة العلمية سائرون علىٰ ذات التقسيم الثلاثي المعروف الذي وضعه؛ بدءاً بـ (فرائد الأصول) أو أن نقول بصدد نوعية التعامل مع الروايات والأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فنشير إلىٰ العلامة المجلسي باعتباره مؤسّساً... أو أن نشير إلىٰ الشيخ الحائري الكبير الذي أحيىٰ الحوزة القميّة و ارتقىٰ مقام مرجعيتها الأول، فهو «مؤسس» بهذا المعنىٰ... وكذا كان المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني مؤسّساً..

كما يمكن أن نتكلم في المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني، وطبيعة انتقاداته العلمية، إذ كانت له نظرته وموقفه الخاصان بتدخّل العلوم البشرية في العلوم الدينية... وهو الموقف غير المتعارف.

وفي هذا الإطار ترانا ندقّق النظر في الأبعاد المختلفة لعنوان (المؤسس)، مع ملاحظة أنّه لم يسعَ للخلط بين العلوم، وإنما كان أكثر تأكيده علىٰ عنوان (المؤسس) وبشكل استطرادي. كما أننا سنلقي نظرةً علىٰ الفلسفة والعرفان؛ لنتمكّن - شيئاً مار من تكوين موقف عام إلىٰ حدٍّ ما عنه رحمه الله. وعموماً، فإنّه يمكن استعمال عنوان (المؤسس)

للمرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني من زاويتين:

الأولىٰ: المرحلة الحديثة، أو: مرحلة الإحياء؛

الثانية: تأسيس منظومة معرفية وانطلاق تيار المعرفة الدينية.

الزاوية الأولىٰ: المرحلة الحديثة ومرحلة الإحياء

إنّه رحمه الله في العصر الحديث مؤسّس هذا الفكر والرؤية في المعرفة الدينية... بمعنىٰ لزوم استثمارنا في المعطيات الوحيانية في إطار ودائرة التعاليم الدينية النظرية.[1] وهذه النظرة - في بعض أبعادها - جديدة تماماً، وهي - في أبعاد أخرىٰ - وحيانيّة. و هو رحمه الله قد التفت وصرّح بهذه الفكرة الدقيقة.. وأن نقول بأنّها وحيانيّة؛ فإننا نغي كونها رافعة الغفلات السابقة. وهناك بعض كبار علمائنا يعدون معين العلم مجموعة الكلمات الدينية، ولكن قد حصلت الغفلة عنها في بعض الحالات والفترات، وبعبارة أخرىٰ؛ في بعض المقاطع والفترات الزمانية، صار اعتبار علمية الأفراد لا يقاس بالحديث القائل: «إعرفوا منازل شيعتنا - منّا- علىٰ قدر روايتهم عنّا».[2] وهكذا كان التيار الحاكم المتواجد في بعض الفترات والمراحل في حوزاتنا العلمية، مع الأسف.. وبهذا ترانا لا نتلمّس في بعض المقاطع التاريخية أيّ محصّلة و ثمرة تحقيقيّة حديثة في المباحث المعرفية.. أي: لم يتمّ الاهتمام في إطار المعرفة النظرية بهذا القسم فى المعطيات الدينيّة.. ولذا؛ يلاحظ أنّهم كانوا يجيبون عن الإجابات علىٰ الأسئلة النظرية والكلامية في مساحات أخرىٰ، وهي غريبة بطبيعة الحال...

ولقد وفّق المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني في الفترة التي كان فيها في الحوزة المشهدية أن ينشر بساط علوم أهل البيت عليهم السلام.. فلفِتَ الأنظار والأذهان إلىٰ هذه الغفلة، وفتح العيون نحو «النظرة الجامعة إلىٰ المعطيات الدينية».

وقد كان هذا العمل عملاً إحيائياً وحديثاً لا سابق له. ولاريب في أنّ ثَمّ اشاراتٍ كانت تظهر في بعض المفكّرين السالفين، ولكن تلكم الاشارات لا يمكن وصفها بأنها تمثّل

١. في هذا البحث لا نلج دائرة الأحكام والفقه.

٢. الأمالي، للمفيد، ص ٣٨٢.

تياراً تاريخياً.. والأهمّ في ذلك، أنّه رحمه الله قد عرض منظومة معرفية دقيقة.

وهكذا نستعرض موارد فى تلك الانطلاقة الحديثة والإحيائيّة في هذا البحث، واثقين بأنّ العارفين بميراث المرحوم الإصفهاني قادرين علىٰ تتميم الفهرس محطّ البحث.. ولقد كانت انطلاقته الحديثة أو الاحيائيّة ذات بُعدين: سلبية وإيجابية.

١-١: الانطلاقة الإيجابيّة

أولاً: هو قائل بأنّ مصدر المعرفة الصحيحة بالنسبة للبشر؛ المعطيات الوحيانية، بمعنىٰ أنّ المعارف البشرية المجرّدة عن دلالات الوحي في مظانّ الخطأ.. وماذا يعني التجرّد عن دلالات الوحي؟ إنه التجرّد عن الالتفات إلىٰ حضور الله ومحضره في هذا العالم.. فإذا لم نرَ- نحن البشر- أنّنا مخلوقون، سنسقط في الخطأ ونماذجه ومصاديقه.. وهو الحال الذي يغرق فيه البشر ومتورّط فيه في الوقت الراهن.. ويقولون: إنّ هذا العصر المتطوّر تقنياً يمثّل العودة إلىٰ عصر اليونان والتجرّد عن عصر التديّن الذي استغرق بضعة قرون، حيث كانت الديانة النصرانية قد بسطت نفوذها في القارة الأوروبية مع حضور الكنيسة والبابا.. أي أنهم - الأوروبيون - كانوا يستلهمون معارفهم من ذلك المصدر.. فهذا المصدر مصدر بشري. ويقول المرحوم الميرزا الإصفهاني: إنّ هذا المصدر بشريٌ، وهو خاطئ من أساسه، و إنّ البشر ما لم يعدُّوا علاقتهم بالله علاقة المخلوقية فإنّهم يسلكون الانحراف عن الصواب.. وهذا القول قول مهمّ وأساسي وصادح في مؤلفات المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني.

وإنّ هذا القول قد أدلىٰ به المتكلّمون ومدّعو اتّباع الانبياء بأنحاء متفاوتة، ولكنه - القول - لم يجد له صدىً في الفقه. فلا يمكن القول بأنّ رأي المرحوم الإصفهاني هذا ليس قولاً حديثاً، إذ لا سابقة له علىٰ هذه السّعة والشمول الذي أدلىٰ به وبهذا الأسلوب والسّياق.

ثانياً: والأهمّ فى ذلك، قوله بأنّنا نحظىٰ بفكرة وواقع اسلامي مهمّ جداً و هو أنّ الله تعالىٰ الذي أنزل لنا القرآن المجيد قد اختار وعيّن لنا المبيّن للقرآن، وحديث الثقلين يشتمل علىٰ هذه الفكرة والقانون.. و علىٰ حدّ مُقتَنَع المرحوم الميرزا فإنّ ثَمّ خطاباً دقيقاً

في البين، إذ في حديث: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين....» يلزم تحديد المراد بأهل البيت.. ولعلّنا نخلط في العادة بين (أهل البيت) و بين (ميراث أهل البيت)، وكلامه هنا صريحٌ. وينقل عنه أنّه قال: اعلم وأؤمن بأنّ قطب العالم، ذلك العروة الوثقىٰ الذي ينأىٰ بنا عن الضلال والخطأ، هو الوجود المقدس لإمام العصر عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف.. وهذا لعمري تصوير واضح وشفّاف في فهم حديث الثقلين.. ولاريب في أنّ هذا الحديث بمثابة ميراث العترة النبوية، وهو شطر من الثقلين.. ولكنّ النصّ النبويّ الشريف قد جعل من القرآن (الثقل الأكبر) والمبيّن له هو (الثقل الأصغر).. وتارة نغفل عن هذا المبيّن الذي هو حجّة الله تعالىٰ على الخلائق.. فنجعل مجموع الوارد عن الأئمة عليهم السلام بدلاً عن أصل الحجة، بيدَ أنّنا نعلم أنّ مجموعَ التراث لا يشمل الاجابات على جميع الأسئلة، إذ أنّ بعضَ المسائل حديثة الوقوع..

والمسألة المهمّة التي ينبغي الالتفات اليها؛ ضرورة التصديق والإقرار بوجود حجّة الله، وليس مجرد القول بأنّ الأئمة اثناعشر إماماً؛ وأنّ الإمام الثاني عشر غائب.. بل لابدّ من الإيمان بأنّ ثَمّ أمام حيٌّ حاضر؛ وأنّ من شأنه أنّه الهادي لنا.. وهذا الايمان والإقرار الذي هو من أهمّ عقائدنا الاصلية والأصيلة، قد قلّ تأثيره... و إنّ هذه الالتفاته فى جانبه رحمه الله تجاه هذه القضيّة المصيريّة لها تأثيرها العظيم وبُعدها العظيم في صناعة الحياة.[1]

ثالثاً: حسب اعتقاده رحمه الله؛ لابدّ من مواجهة التيار الداعي على إلىٰ حذف الله (الوحي) من دائرة المعرفة. ويقول الميرزا الإصفهاني: كانت انطلاقة البشرية خاطئة في مبدئها.. إذ البشر تقابله المتكثّرات.. ثمّ لكي يحقّقوا منظومة معرفية تراهم ينظرون

١. كنموذج لهذه العبارة التي أدلى بها في مقام إظهار الادب في ساحة مولانا صاحب الزمان عجل الله فرجه: «الكهف الحصين وغياث المضطر المستكين، وليّ الأمر وحجة العصر، مصباح الظلمات وكشّاف العشوات ودفّاع المعضلات وفتّاح أبواب الهدىٰ وغلّاق ابواب الردى...» (الاصفهاني، أبواب الهدىٰ، ص ٩٥). وفي نص آخر حرر في ذي القعدة من سنة ١٣٤٢ الهجريّة قال: «قد جعل الله الواحد الأحد وليَّ العصر وليّاً على العالم، فهو بمنزلة القطب والهادي للكل وواسطة جميع الكمالات» (نفس المصدر، ص ٢٧ و ٦٩٤). وقد أكد في رسالة كتبها إلىٰ الميرزا محمد باقر الملكي الميانجي على ضرورة الالتفات والإيمان بمولانا صاحب الزمان عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف (قهرمانى: زندكى نامه آية الله ملكي ميانجي). سفينه، رقم ١، شتاء سنة ١٣٨٢ ش، ص ٧٨-٧٩.

لمنظومة مجازية تبعاً لاعتقادهم بأنّ هذه المتكثّرات مترابطة متّصلة.. ولكنّ الانسان المفطور بفطرة الله تعالىٰ حين يرجع إلىٰ نفسه، فإنّ أوّل ما يراه بديهيّاً أنه بنفسه مخلوق الله تعالىٰ.. ومِن هنا؛ كانت نقطة و مبدأ عزيمته؛ التي هي معرفة الله عزّوجلّ؛ معرفة النفس.. وهنالك يتّضح أنّ معرفة النفس «مَن عَرَفَ نفسه فقد عرف ربَّه» ومعناها الجليّ.. فكانت عقيدته رحمه الله أنّ هذه هي نقطة ومبدأ الانطلاق والعزم... وهنالك يقول: هنا يكمن الفرق بين المعرفة البشرية والمعرفة الإلهية، وذلك أنّ هذا المنحىٰ قد حُذف من المعرفة البشرية.[1]

رابعاً: القضيّة الجديدة في تعليم المرحوم الاصفهاني والمثيرة للاهتمام والخاصّة به، هي أنّ العلم الوارد في الدين هو علمٌ جديدٌ، في حين أنّ العلم البشري علم قديم، بمعنىٰ أنّ البشر و منذ البداية و إلىٰ اليوم كان علم البشرية علىٰ منحىً واحد من العالم.[2] و حسب رأيه، فإنّ جذر جميع النظريات الفلسفية عائد إلىٰ الماضي القريب والبعيد، ولكن علم الأنبياء جديد، أي أنه متجدّد دوماً.. إذ الأنبياء يشيرون إلىٰ البشر بمراحل علمية وعلم حديث متجدّد، وكل عصر يُبعث فيه نبيّ من الانبياء يفتح آفاقاً جديدة. وهذا القول قولٌ مهمٌّ للغاية، وينبغي أن يُنظر اليه من زاوية الحديث القائل: «في كلِّ زمانٍ جديدٌ، وعند كلِّ قومٍ غضٌّ»[3]

وهو يصرّح بأنّ هذه التعبير الحديث ناظر إلىٰ التجدّد والتجديد الذي هو من

١. في العصر الراهن قالوا: نحن لا نحتاج إلىٰ معرفة ذاتية، وإنما نريد العمل علىٰ الموروث، ثم نَصُفُّ أشياء يمكن لها توفير ما نبحث عنه من الإجابات العاجلة. وهذا الاسلوب جيد، ولكنه ليس المعرفة. وطبعاً إنّ هؤلاء يصرّحون بذلك في البداية، ولكنهم بعد ذلك يهمسون قائلين بأنّ هذا هو العلم. فنسأل: «ما هو العلم؟» إذ أنّ ما تصفّون بعضه على بعض لبلوغ النتائج المطلوبة لازم في محلّه، ولكنه ليس علماً، إذا العلم نورٌ ترىٰ من خلاله وبه حقيقة العالم.. ولذا ترىٰ نطلب في أدعيتنا قائلين: «اللهم أرني الأشياء كما هي»، ولاريب أنّ مساحة مصطلح العلم غير منحصرة في العصر الراهن.. ونحن هنا لا نعالج التغيير في معنىٰ الألفاظ الوارد في بحوث المرحوم الميرزا الإصفهاني، حيث كان حسّاساً جداً تجاهها..

٢. النموذج الواضح لهذا الرأي يمكن ملاحظته في مطلع (رسالة أنوار الهداية) التي كتبها في أخريات عمره.

٣. حكيمي، الحياة، ج ١، ص ٢٢٠.

خصوصيات العلم الإلهي، إذ العلم بهذا المعنىٰ لا نهاية له، وإنما يكون كشف المعلومات بشكل متواصل ضمن إطار نور العلم. وهذا القول قولٌ مثير ورائعٌ، حتىٰ لكأنّ فهمَ العالَم كان لدىٰ البشر مجرّداً عن تعليم الأنبياء وقديماً. فعلم الكيمياء - مثلاً - المعاصر هو استمرار لعلم الكيمياء القديم، والحال والأمر ذاته في علم الحساب القائم على علم الحساب القديم. وصحيح أنّ علم الهندسة الاقليدسية قديم، وقد استُلَّ علم الهندسة المعاصر منه من بعض الجهات.. ولكن الفكرة فيه هي ذات الفكرة القديمة.

ولدىٰ المقايسة مع واقعية العلم - دون الافكار العلمية القديمة - فإنّ الانبياء قد جاؤوا بعلم جديد. وهذه نقطة مهمّة ونافرة جداً، لا سيّما في عصرنا الرّاهن حيث المعارف الدينية المتعلّقة بالعصر المتطور، وأنّ كل مسعىً في إطار فهم وتبيين السنن العلمية والدينية راجع إلىٰ ذلك العصر.

الخامس: المسألة الجديدة التي تعرضت للغفلة، هي أنّ الدين لا ينظر إلىٰ جميع أبعاد الحياة الإنسانية فحسب، بل هو ناظر إلىٰ جميع أبعاد المعرفة. وإنّ غالب كبار علمائنا يعدّون أقساماً من المعرفة متعلقة بدائرة الدين. فالمرحوم الشيخ المفيد رضوان الله عليه مثلاً؛ الذي شرح كتاب (اللطيف من الكلام) يلج هذا البحث بأسلوب ومنحىٰ المتكلّمين، حتىٰ أنّ بعض العلماء كانوا يرون الدائرة أوسع من ذلك، فمثلاً؛ قد فتح العلامة المجلسي رحمه الله أبواباً من المعرفة الدينية لدىٰ تبويب (بحار الأنوار)، مثل: (السماء و العالم) و (العدل والمعاد). وطبعاً؛ أنّ العدل والمعاد من جملة التعاليم والمعطيات القرآنية، ولكنّه أورد في ذيل عنوان (السماء والعالم) أحاديث ذات صلة بمباحث الكون والخلقة ومعارف الطبيعة، كما أدلىٰ رحمه الله نظريات العلماء بهذا الصدد شرحاً ونقداً. فيما المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني عدّ كل ذلك علماً دينياً، أي: أنه يعتبر مساحة المعارف الدينية أوسع من ذلك بكثير.[1]

١. كنموذج: «من مفصّلات معارف القرآن وصاحب الشريعة المقدّسة المخالفة للمعارف و البشرية ما ذكّر به من المعرفة بالعوالم وكيفيتها، وحقيقة نشأة المخلوقات واقعيّتها، وحقيقة الدنيا والآخرة، وما يرجع إلىٰ معرفة النفس والبدن في البدء و العود» (الإصفهاني، معارف القرآن، ص ٢٨٩).

السادس: المطلب الأهمّ؛ أنّهم يعدّون قوام المعرفة الدينيّة العقل والعلم[1]، أي أنّ بنيانَ المعرفة قائم على أساس العقل والعلم. فالعقل حقيقة ونور يحدّد الصحيح ويميّزه عن غير الصحيح. ونور العلم أيضاً حقيقة تكشف عن هذا العالَم. وعليه؛ فإنّه ليس من معطىً ديني لا يتعارض مع العلم والعمل فحسب، وإنما المعطيات الدينية قد بُنيت علىٰ هذه الأركان، وعليه؛ فإنّه لا شيء في الدين يرفضه العقل.[2]

السابع: إنّ اشتمال القرآن الكريم علىٰ جميع المعارف الدينية بالنّحو البرهانيّ، هو من المطالب التي طالما أكّدها رحمه الله. وقد تقدّم أنّ الخطوة الأولىٰ في المعرفة الدينية؛ معرفة النفس، وهذا ما ينبغي أن يكون الانطلاقة الإيجابية التي يجب الالتفات إليها.

و توضيح هذا المطلب بما أدناه:

إنّ جوهر المعرفة الدينية وجدان مخلوقية الآدمي. وبعبارة أخرىٰ: إنّ المعرفة الدينيّة هي أنّ الوجدان يمثّل نسبة حقيقيّة بين الخلق والخالق. والقرآن كذلك تجلّي هذا الوجدان في جميع المستويات و مراتب الحياة.. ففي الواقع، إنّ الدين الذي يتضمّن

---

١. هذا الكلام يتعارض وفهم النواصب والمخالفين بخصوص فهم المعرفة، فهؤلاء يذهبون إلىٰ أن طريق القرآن والحديث نقليٌ، ويعتقدون بأن كل قائل بأن بنيان العلم والمعرفة قائم علىٰ التلقي و الاستدلال والشهود العقلية والذهنية والنفسية؛ هو عقلي.. والحال أن العقل لا يساوي العلم البشري ولا النقل يساوي نفي العقل، وكل من يدعو إلىٰ اعتماد النقل لا يعارض مدرسة العقل. وهؤلاء يرون موهبة الإنسان في أن العقل يتفهّم العالَم بذاته علىٰ اساس المعطيات الناقصة ويخطط ما يخطّط. مثال ذلك؛ مقولة الفلاسفة المسماة: العقول العشرة – على حدّ قول المرحوم الخواجة نصير الدين الطوسي – لحل مسألة ظهور المتكثرّات في العالم. ولذا؛ فهم لا يصرّون علىٰ تعداد العقول ولا يعدّونه قولاً نهائياً. ولكنهم يقولون بالنظرة العقلانية... والحال أنه لو كانت ثَم مقولة أخرىٰ أو استفادة من الحديث المذكور والقائل بأن الله تعالىٰ قد خلق كلمة ثم بسطها، فلا إشكال، ولا ينبغي القول إن هذا نقلي وذاك عقلي....

٢. كنموذج تلاحظ العبارة التالية: «وأما أساس معارف القرآن كما عليه أساس معارف الرسول والأئمة عليهم السلام على العقول التي هي حجج إلهية مبعوثة على جميع العقلاء»؛ «وأمّا العلم الذي هو أساس القرآن؛ هو العلم الحقيقي الذي لا يُعرف أيضاً ولا يوصَف، و يمتنع أن يُعرف إلّا بنفسه» (نفسه، ص ٤). وواضح أن المراد فى العمل في عبارة «غير عقلي» معناه الحقيقي، وليس كل ما نقبله.

القرآن تعاليمه، هو وجود مدرسي لهذا الوجدان.. فإدراك حقيقة أنّني مخلوق لله و أنّ الله هو الخالق... ثم بسط هذا الإدراك.. فهنالك تكون المعرفة الدينية، وإذا ما صارت هذه الحقيقة أساس العمل، تحقق وتمثّل السلوك الديني...

١-٢: المنطلقات السلبية

قبل أن نخوض ونتناول الموارد السلبية، فإنّ من المناسب الالتفات إلىٰ السؤال القائل: مِن أين يبدأ التعليم وشرح الدين.. فماذا علينا القيام به إن أردنا للدين أن يبقىٰ بيننا حاضراً ومستقبلاً، وأن يكون ديناً عالمياً؟

هو - رحمه الله - يذهب إلىٰ أنّ معرفة النفس أساس المعرفة الدينية.. وهذا في الواقع إجابة علىٰ سؤالنا، وهو بمثابة عرض نموذج ومعيار يمكن تحقيقه لتحكيم أسس الدّين في المجتمع الإنساني، فإذا عدَّ الإنسان معرفة النفس باعتبارها وجدان، واقعية المخلوقية، كان في المسار القديم، لأنّها سينظر إذ ذاك - وعلى الدوام- إلىٰ نسبة الخلق والخالق وما يترتّب عليه في قواعد وسلوكيات.[١]

وهذا نموذج مطلوب في تعليم الدين.. فإذا ما طبّق هذا النموذج وصار منهجاً يُعمل به بما يتطابق والفطرة النزيهة غير المشوّهة، فإنّ عوامل الحقّ والحقيقة والصواب ستأخذ بيد الإنسان وتخلّصه من كلّ مخمصة وعسر... ومن أجل مواصلة الالتزام الدّيني والتديّن الواقع والبقاء والاستقامة عليه. لعلّ هذا النموذج هو الأصوب والاكثر فاعلية وضماناً.. و لا نقول بهذا المسلك المقام المعرفة، وإنما نعرضه في مقام التعليم.. بمعنىٰ أنّنا إذا أردنا تعريف وتحكيم الدين في المجتمع، فإن ذلك من زاوية الاهتمام بهذا النموذج.[٢]

١. الإنسان الذي يكرس واقع مخلوقيته، ويجعل في هذا التكريس وجداناً حياً، فإنّه سيسير في المسار الصحيح حتىٰ يبلغ نقطة النهاية، أما السائر إذا ما أشغل نفسه بتفاهات الأمور انحرف عن الجادة من حيث لا يعلم، ولن يصل إلىٰ مبتغاه أبداً.. أما الذي يرمي ببصره إلىٰ نقطة النهاية الحقيقية، فإنه لن يضلّ الطريق...

٢. يمكن اقتراح نماذج أخرىٰ في قضية تعليم الدين، ولكنّنا هذا أردنا إلفات النظر إلىٰ أنّ نظرة المرحوم الميرزا الإصفهاني المعرفية في مقام التعليم جديرة بالاهتمام البالغ.

ومن حيث الزاوية السلبية، فإنّ الآراء المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني جملة انعكاسات:

أولاً: أنّ المعرفة البشرية ناقصة وغير صائبة، لأنّ نقطة الانطلاق فيها خاطئة،[1] مع كونها غير خلية من شيءٍ من الصواب، ولكنها غير جديرة بالاعتماد عموماً.

فهو قد ادّعى مطلباً تاريخياً، وهو أنّه قد جرىٰ الترويج عبر التاريخ بمجمله للمعرفة البشرية وأنه كانت السيطرة والسطوة لهذه المعرفة.. وهو يورد شواهد علىٰ ادّعائه هذا. وطبيعي أن يكون لهذه الفكرة مكانتها وضرورة تقييمها وتحليلها، لأنّها ناظرة إلىٰ أمر تاريخي عتيد.

ثانياً: أنّ دافع الترويج للفلسفة في العالم المسلم كان مخالفة الحكّام لمعارف أئمة الشيعية المعصومين عليهم السلام، فسلوك المأمون العباسي وأشباهه قد رفَد و قوّىٰ هذا المذهب.[2] وهذه النظرية جديرة بالدراسة التاريخية، لأنّ ذلك ليس معرفة دينية بقدر ما يجسد أمراً واقعاً، ينبغي تحليله ودراسته، مضافاً إلىٰ أنّه قابل للإثبات، كما هو قابل للإصلاح والمراجعة.

ثالثاً: أنّ التأكيد علىٰ «حقيقتين» وأمرين «متمايزين» بين العلم البشري والعلم

---

١. كتب في مطلع رسالة إعجاز القرآن: «ظهور حكمة وفلسفة اليونان قبل بعثة النبي نوح – علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام – و ظهور مذهب وحدة الوجود والموجود التي هي الأساس والجذر المشترك بين العرفان والتصوّف، وذلك من قِبل فلاسفة اليونان قبل ولادة النبي عيسىٰ – علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام – وانتشار ذلك واضح من قبل التواريخ الفعلية لاكسيوفان الحكيم؛ أستاذ برمايندس الحكيم في المأة السادسة السابقة للميلاد حيث اعتبر أنّ كل الكائنات يجمعه جوهر واحد أصلي، وهو الله الذي لا مثيل له، وأنّ جميع موجودات العالم عبارة عن وحدة محضة». (الإصفهاني، إعجاز نامه، ص ١).

٢. مثلاً؛ قد كتب في مطلع (أبواب الهدىٰ): «من كان عارفاً بسياسة الخلفاء؛ يظهر له كالشمس أنّ العلّة في ترجمة الفلسفة وترويج مذهب التصوف المأخوذين من اليونان ما كانت إلّا السياسة لمغالبة علوم أهل البيت عليهم السلام وإغناء الناس عنهم؛ بعد ما فتحوا باب التكلّم في جميع الأبواب قبل الترجمة، وقد ظفروا بمقصدهم بعد أخذ النتيجة وغلبوا عليها كما غلبوا عليهم من حيث السلطنة الظاهرية». (الاصفهاني، أبواب الهدىٰ، ص ٩٨ – ١٠٠).

الإلهي، حيث الأول علم قديم والثاني علم جديد.. فهو تأكيد مهم جدّاً، وقد التفت رحمه الله له. وعلىٰ هذا، فإن الفلسفة والعرفان اللذان هما نظامان معرفيّان في مقابل المعرفة الدينيّة. ودليل هذا التقابل أو التمايز - كما مرّ ذكره- في نقطة الانطلاق في المعرفة الدينية، حيث تجسدها معرفة النفس (الكشف والالتفات الجادّ إزاء المخلوقية باعتبارها أمراً ذاتياً ومقوّماً للنفس) خلافاً للمعارف الفلسفية أو العرفانية التي تنطلق من نقطة أخرىٰ ونظرة مخالفة.

وهنا، يلزم القول والادّعاء بأنّ انطلاقة المرحوم الميرزا الإصفهاني في المعرفة الدينية انطلاقة حديثة وإحيائيّة، وهي جديرة بالتقييم ومعرفة مدىٰ صحتها و صوابها.. وهذا التقييم نذكره إجمالاً ضمن نموذجين:

النموذج الأوّل: من طالع المقدمة الجامعة لكتاب الكليني، علم أنّ رأي المرحوم الشيخ الكليني - الذي كان بمثابة الممثّل للفهم الشيعيّ العامّ في عصره - هو انحصار العلم الديني في أخبار وتعاليم الائمة المعصومين عليهم السلام. فهو قد صرّح في المقدّمة بذلك، ولكنه لم يشر الىٰ أنّ هذا القول من جانبه وأنّ للآخرين رأياً آخر. فكأنّ النظرة العامّة لدىٰ العلماء والمؤمنين هي هذه. وقد راجع أحدهم المرحوم الكليني؛ فكأنّ لهذا الشخص هذا القول بعد استظهاره ذلك فيما يتعلق بالدافع من تأليف هذا الكتاب. فقد طلب من الكليني أن يؤلّف كتاباً شاملاً للأحاديث ويكون شاملاً وجديراً بالاعتماد: «كتاب شافٍ يجمع من جميع فنون علم الدين ما يكتفي به المتعلّم ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه مَن يريد علم الدين والعمل به بالآثار الصحيحة».[1] وحينما يؤكّد الكليني هذا القول والمنحىٰ، يُعلم أنّ المجتمع الديني في ذلك العصر كان له هذا الفهم والاستنتاج من هذه المسألة، وقد أيّده المرحوم الكليني..

النموذج الثاني: أكّد العلامة محمد باقر المجلسي - بعد سبعة قرون من الشيخ الكليني - في مطلع موسوعة (بحار الأنوار) أنّ زلال المعرفة يؤخذ من معين القرآن المجيد

١. الكلينى، الكافي، ص ٢٤ - ٢٥.

وأحاديث وروايات أهل البيت عليهم السلام، وأنّ هذا هو الدافع له في تأليف هذا السفر الكبير، أعني (بحار الانوار).

ورأي المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني قائل بأنّ رأي الفقهاء وكبار المحدّثين هو هذا. فهو يقول بأنّ خرّيجي مدرسة الأئمة عليهم السلام هم هؤلاء الفقهاء والمحدّثون، وقد ساروا على هذا النهج... فيكون رأيه وقصده إعادة تيار المعرفة الدينية إلىٰ سيرة السلف الصالح.[1]

يذكر أنّ محورية العقل ونور العلم في آثار وموروث المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني جدير بالاهتمام. و إنّ من يُمعن النظر في مؤلفاته، يجد أنّ هذين الاصطلاحين الأكثر وروداً واستعمالاً. فهو يوضح معنىٰ العقل والعلم، حيث يتفاوتان عن المعنىٰ الاصطلاحي الرائج والمتعارف في المعرفة البشرية، كما يذكّر على الدوام أنّ بنيان قائم على أساس العقل ونور العلم.. وهنا تجب الاجابة على هذا السؤال الهامّ، وهو: إذا قلنا بأنّ المعرفة الدينية تصدر عن طريق الثقلين، فهل يعني هذا أنّنا لا حاجة بنا إلىٰ الاستنتاجات البشرية أبداً؟

والجواب بسيط.. إذ ليس من قصد المرحوم الميرزا الأصفهاني قطع الطريق، و إنما توسعته. فحينما يقول: نتحرّك بنور العقل، فإنّ معناه: أنّ العقل يكشف الفطريات ويوضّح البديهيات، وأنّ أساس محصلات الانسان تتأتّىٰ وتُحرز ببركة نور العقل، كما هو الأمر في الفقه (دائرة السلوك والتصرفات) حيث يكون الحديث عن المستقلّات العقلية، أو يتمّ تناول قضايا أصل الحُسن والقبح العقليّين، بل ويُقبل - في بعض الأحيان والحالات - الآراء المحمودة بحدود ومستوىٰ المستقلّات العقليّة.[2] و في أمر المعرفة الدينية، لا يعارض الميرزا الإصفهاني التلقي الفطرة، بل إنّه يعتبر بنيان وأساس المعرفة الدينية

١. هو ينقل عن المرحوم العلامة بحر العلوم عبارة يشكو فيها بعض الأفراد الذين عافوا ميراث أهل البيت عليهم السلام، مضافاً إلىٰ مذهبهم إلىٰ أنهم والآخرين لو تعلموا آراء أرسطو وأمثاله؛ لبلغوا الحكمة. هذا في الوقت الذي يؤكد المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني على أنّ العلماء الصالحين وكبار المحدثين يبحثون ويتلمّسون المعرفة الدينية في علوم الأئمة المعصومين عليهم السلام.

٢. هذا هو منحىٰ المرحوم الميرزا الإصفهاني في المنظومة الفقهية أيضاً.

هذه الفطرة... وكلامه منصبٌّ علىٰ السبب الذي حدا بعلمائنا إلىٰ ترك هذه المجموعة المعرفية الواردة ضمن تعاليم أئمّتنا. فلقد كانت غاية المرحوم الإصفهاني فتح طريق جديد؛ لا غلق الطريق.. ومذهبه بهذا الصدد قائل بأنّ مصادر الدين - تعاليم أهل البيت عليهم السلام - تفتح الآفاق، ولا ينبغي بشكل من الأشكال الغفلة عنها. وعليه؛ فإنّ كلامه رحمه الله ليس بمعنىٰ هجر العلوم البشرية بمعناها العام.. لأنّ أفراد البشر يسعون سعيهم ويدلون بدلوهم.. و إنّ كثيراً منهم - ومِن دون أن يعلموا - لهم سلوكهم القائم على أساس البديهيات، و حينما نهتمّ بانجازاتهم، تراهم يؤيّدون ما نذهب إليه.

وفي الحقيقة؛ إنّ مؤلفات وآراء المرحوم الميرزا مهدي الاصفهاني ناظرةٌ إلىٰ مساحات فى المعرفة غير قابلة للكشف والتلقي من دون دلالة الوحي.[1] وإني لراغب التأكيد القاطع علىٰ أنّ المرحوم الميرزا الإصفهاني لم يكن ناظراً إلىٰ ساحة الفعل البشري العادي.. كتأثير الخلّ في بدن الإنسان.. فهذا ليس من اهتمامات الإصفهاني، وإنما بحثه في أفق أعلىٰ بكثير.. مثل مسألة المعرفة الدينيّة، وعوالم الخلقة، و مستقبل البشر في العوالم الأخرىٰ، القبر و البعث والقيامة والجزاء. وغير ذلك من المسائل.

المنظر الثاني: تأسيس المنظومة المعرفية

لقد كان المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني «مؤسّساً» إذ عرض منظومة معرفيّة خاصّة.

---

١. كمثال: إنّ الاطباء وصنّاع الأدوية السابقين واللاحقين لسقراط توصلوا عبر اسلوب الاختبار والخطأ إلىٰ طرق حفظ السلامة وتعرفوا إلىٰ طرق في مواجهة الأمراض. ولكن هذا ليس هو موضوع بحث المرحوم الميرزا. وإنما بحثه في مساحات من المعرفة التي لا يمكن التعرف إليها من دون دلالة الوحي. ولأبي ريحان البيروني- و هو من أكبر علماء القرن الرابع والخامس - كتاب تحت عنوان (تحديد نهايات الأماكن) في الجغرافية الرياضية وسبيل حساب فواصل المناطق والمدن وغير ذلك، إذ في مبحث (مبدأ العالم والكون والكرات) ثمّ طريقان لمعرفة زمان مبدأ العالم. فإمّا أن يكون الإنسان موجوداً إذ ذاك، و إما أن يخبر شخص من جهة خالق العالم بذلك.. فإذا واجهنا اليوم - كما في الماضي - الفرضيات والنظريات بخصوص مبدأ خلقة العالم، فإننا في غنىً عن تحليل ذلك من المنظار الديني، لأنّ هذه النظريات والفرضيات مجرد استنتاجات وأجوبة علىٰ اسئلة معروفة رائجة، وهي لا تكشف عن الواقع والحقيقة على سبيل الحتم واليقين.. و هنالك يكون التعارض بين العلم والدين...

فيما المرحوم المجلسي - مع فائق شخصيته وشرحه الهام جداً الذي أدلىٰ به على الأحاديث والروايات - لم يعرض منظومة وأطروقة بهذا الصدد، مع أنه قد شرع في تبويب جديد.

إن المرحوم الميرزا قد ابتدع مسلكين حديثين:

الأول: هو يذهب إلىٰ أنّ في المعرفة الدينية تتفاوت الأطر وطبيعة العرض، وحتىٰ التنظيم والتبويب والألفاظ مع نظام المعرفة البشرية.. وهذا الرأي لم يحظَ بالاتفاق بين العلماء، أو أنه لم يذهب إلىٰ هذا المنحىٰ جملة من الأعيان، وحتىٰ الشيخ الصدوق قد تقبّل بعض النماذج الرائجة في تنظيم العلم. والمرحوم المجلسي لدىٰ تنظيمه ابواب (بحار الأنوار) استعان بطريقة التبويب الرائجة للعلم. ولكن المرحوم الميرزا الإصفهاني عدّ التبويب في المعرفة الدينية متفاوتاً مع المعارف الأخرىٰ.

الثاني: هو قد عرض منظومةً، فمثلاً، لو أنّ أحدهم قام بترتيب إيضاحات و شروح العلامة المجلسي في مختلف الأبواب الكلامية والفلسفية والتفسيرية والفقهية وغير ذلك، فإنّه من البعيد أن يحصل أو ينتهي إلىٰ منظومة ما.. ونحن في العالم الإسلامي لدينا أفراداً معدودين قد عرضوا منظومة، ولكن المنظومة القادرة في هذا العصر علىٰ الإجابة علىٰ الأسئلة والمتطلبات المتنوعة، فهي قليلة جداً. وهذا مطلب هامّ جدّاً بخصوص المرحوم الميرزا؛ حيث ينبغي الالتفات إليه، بمعنىٰ أنّ المنظومة التي دبّجها جديرة بالاهتمام، باعتباره مؤهّلةً للردّ على التساؤلات والمتطلّبات.. إذ بها ألفت الأنظار إلىٰ جملة في النقاط المهمّة، منها:

١- أنّ المعرفة النظرية مقدّمة على معرفة الأحكام، كما تمّت الاشارة إلىٰ ذلك في بحث معرفة النفس.. وهذا التقدم يعني شديد الترابط بين الجهتين... فمثلاً، في باب قصة الخلقة، إذ اعتبر الشرط الأول فهم هذا المطلب، حيث ينبغي أن يكون الإنسان من أهل التهجّد والمناجاة والدعاء في الأسحار، وهذا يعني أنّ هذين العاملين مرتبطان فيما بينهما؛ في الحياة الشخصية وفي السلوك الانساني، فيكون حذراً جداً.. وليكون وجوده وجوداً مستعداً قابلاً للمعرفة، لابد من وقوع حوادث كثيرة. وللمرحوم الميرزا الإصفهاني

رسالة في الصلاة، وقد عرّف في أخرياتها - وهي عبارة عن كتاب نظري - عدّ الصلاة قمّة معرفة العبودية.. وهذا على وجه الدقّة يمثّل الفارق في المعرفة الدينية عن غالب العلوم البشرية، بل وعن بعض العلوم الرائجة في الحوزات العلمية، فهو يعتبر المعرفة النظرية مقدمةً.. ولكن هذا التقدّم تقدّم في المرتبة وليس تقدّماً زمانياً.. وأنّ هذا التقدم هو أساس العمل.. ولا ريب في أنّ هذا الأساس متداخل مع واقعية الوجود الانساني، و ينبغي أن يتمثّل في مسيرة العبودية - ولازمة معرفة الأحكام - وهذه النظرة نظرة قرآنية تامّة، إذ بالرّجوع إلىٰ القرآن الكريم نلاحظ أنّ من أهمّ وصايا وتعليم هذا الكتاب بمثابة مجموعة من التعاليم النظرية والأحكام الإلزامية والأخلاقيات والعبادات.[1]

إن إنجاز المرحوم الميرزا الإصفهاني هذا مهمّ للغاية. بمعنىٰ أنّ الانسان ولدىٰ الكثير من المباحث النظرية المتوفّرة في مؤلّفاته قد دعا إلىٰ استشعار الخشية من الله تعالىٰ و إلىٰ عبوديته بين سطور ما حرّره.. وكذا في شروحه للأحاديث والروايات، أو ما قاله بصدد القرآن المجيد، حتى لكأنّ الخضوع في محضر القرآن قد تغلغل إلىٰ وجوده وتجلّىٰ ذلك في هذه الاصطلاحات.. ويكشف من تصاريح تلامذته المقرّبين أنّه كان في مقام نقل ذلك الاستشعار إلىٰ الآخرين.. وعلى هذا، تكون معرفة النفس مقدمةً وكذلك هي متداخلة مع جميع معرفة الاحكام والسلوك الديني.

٢ - المسألة الأخرىٰ التي طالما أصرّ عليها، هي استعمال المصطلحات بمعانيها الخاصّة، وحسب ادّعائه؛ فإن كثيراً من المصطلحات الواردة في النّصوص الدينيّة قد وجدت لنفسها معانٍ أخرىٰ بالتدريج. فمثلاً، يقول: إنّ دلالة كلمة «الحديث» متأخرة عن الأخبار، وإلا؛ فإن الحديث يعني الجديد، وبهذا قد عدّ الله القرآن حديثاً،[2] كما أنّ له اعتراضاً علىٰ تغيير معنىٰ كلمة «الفقه»، وانتقاده منصبٌّ علىٰ السبب في اعتبارنا

١. كمثال يقول: (قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللهَ إلّا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون) [سورة الأنعام، الآية ١٥١].

٢. كنموذج: (الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) [سورة الزمر، الآية ٢٣]؛ (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) [سورة الواقعة، الآية ٨١].

الفقه علماً بأحكام الجوارح؛ مثل (الوضوء والطهارة والتيمّم). ولاريب في أنّ هذه الأحكام لها نسبة واقعية بمعرفة النفس و أنه لازم الاتّباع، ولكنّ الفقه غير منحصر بذلك، وإنّما الفقه يعني معرفة الدين.. ومن هنا؛ كان مصطلح «العلم» في الأغلب العلم الذي يضمّ التصوّرات والتصديقات العامّة بين البشر، في حين أنّ العلم هو علم المكشوفيات والواقعيات... ولذا؛ وجدنا الأدبيات الدينية يعبّر عنها بالنور... وأنّ فاعلية «العقل»، هي التفريق بين الحق والباطل دون صفِّ تقارير المقدمات لبلوغ النتيجة.

وهكذا كان إصرار الميرزا الإصفهاني علىٰ المصطلحات والتعاريف.. أي؛ التعاريف المعروضة في المنظومة. ولذا؛ فهو يستعمل المصطلحات بمعناها الأصلي.

٣- في المنظومة المعرفية للمرحوم الإصفهاني كان الاهتمام بالقرآن والحديث في قمّته.. وكل رجوعه من يطالع كتاب (معارف القرآن) يعي مستوىٰ رجوع و اعتقاده والتزامه رحمه الله بالقرآن والحديث.

٤- بتأكيده رحمه الله علىٰ قضية منظومة المعرفة الدينية، من حيث الابواب والتبويب كذلك التعبيرات هي غير المعرفة البشرية، وهي مصرحة بذلك، بحيث أنه توجّه بالنقد إلىٰ بعض كبار العلماء ممّن تقبّل الأطر.[١]

٥ - قد عدّ المرحوم الميرزا الإصفهاني بكلّ صراحة؛ الفلسفة والعرفان الرائج والمعروف من محصّلات المعرفة البشريّة،[٢] والدلالة الالتزاميّة لهذا المدّعىٰ؛ أنّ المنظومة التي يعرضها لاعلاقة لها بالمنظومتين المعرفيتين. وهو في الواقع يبيّن مساره الاصلي، فإذا ما لوحظت تعابير في أدبياته ومؤلّفاته ممّا قد توهّم ببعض التشابه مع العبارات الفلسفية أو العرفانية، فانها في الحقيقية ليست من سنخ واحد. وإنما ينبغي فهم خطابه من زاوية نظرته المعرفية، ثم توجيه التقييم والنقد اليه. ولا يمكن الادّعاء بأنّه قد كرّر مقولات

١. لا يبعد أن يكون هذا الانتقاد في محلّه فيما لو أكّدنا منذ البداية، ولما وضعنا أنفسنا في هذه الدائرة، ولكان كلامنا في المراحل المختلفة أيسر للفهم الصحيح. وطبعاً، لأنّ الكثير من أعلامنا قد قبلوا في مباحثهم العلمية والتعليمية. ويبدو أنه لم يكن من اللازم الإصرار على التغيير.

٢. قد كتب في تفاصيل سيرته بصراحة أنه كان يعي – منذ دخوله حوزة النجف – أن التصوّف عبارة عن مرض ضالّ ومضلّ، وأنه كان متنفراً منه. (الإصفهاني، ابواب الهدىٰ، ص ٢٦ و ٦٩٤).

العرفانيين بمجرد التقطيع والانتقاء من بين عباراته الواردة في منظومته.. فهو أساساً يصرح في كل موضع أنّ سبيل ونتائج ومخرجات العرفان والتصوّف هي غير سبيل ونتائج معارف الأنبياء والأولياء. وفي هذه الصورة، يكون من غير الممكن - مثلاً - أن يصل في منظومة المعارف إلىٰ تعاليم وحدة الوجود في العرفان النظري.. ولذا؛ يلزم أن تكون العبارات مفهومة بالنظر إلىٰ هذا البيان و الاستنتاج الصريح.

٦- قد عرض المرحوم الميرزا الإصفهاني منظومة معرفية ناظرة إلىٰ المباحث النظرية في الدين، وهو يعدّ دائرة الفقه - في المعنىٰ الاصطلاحي - خارجة عن هذه البحوث. وإنّ أسلوبه في الفقه - وبشهادة التقارير والمدوّنات المكتوبة - هو ذاته أسلوب الفقهاء وهو امتداد للتيار الفقهي في الحوزات، ولاسيّما المنظومة الأصولية- الفقهية للشيخ الأنصاري. ولذا؛ فإن قيل إنّ منظومة معارف المرحوم الميرزا الإصفهاني من سنخ تيار الإخباريين، فهو قول غير رصين؛ بل ولا أساس له.. فمن يَعُدّ الميرزا الاصفهاني إخباريّاً؛ فانّه لم يطالع تراثه وتصاريحه، ولعلّه لم يعرف الإخباريين بشكل صحيح.. فالتيار الإخباري بمعناه الاصطلاحي عبارة عن تيار فقهي محدّد، ظهر في حقبة تاريخية وله موازينه ومعاييره المحدّدة.. بمعنى أنّه قد انطلق في اواخر القرن العاشر الهجري، وبلغ قمّته في القرن الثاني عشر الهجري، ثم في مطلع القرن الثالث عشر الهجري بلغ محاقه... ولقد كان التيار الإخباري تياراً قوياً جارفاً مؤثّراً. وكان تأثيره ودوره في إحياء علم الأصول جديراً بالملاحظة، وذلك أنه في ظل الإخباريين و ما عرضوه من الإشكالات عُمِدَ إلىٰ تصحيح وتكميل علم الأصول، كما خضع للتغيير في عدة موارد.

و عموماً؛ فإنّ المدرسة الإخبارية لا علاقة لها بتيار المرحوم الميرزا مهدي الإصفهاني المتّجه نحو الإحياء والتجديد.. وهو رحمه الله قد توجّه بالنقد إلىٰ تجاهل أخبار وروايات الأئمة عليهم السلام وثقافتهم، وذلك ضمن نقده لدىٰ تنظيم وتوجيه ما يعرف بعلم الأصول... ولكن هذا النقد لم يكن تأييداً للإخباريين...

تقييم وإعادة نظر

كان المشروع التأسيس والإحيائي الذي أنجزه المرحوم الميرزا مهدي الاصفهاني

مشروعاً هائلاً، فهو بالاستمداد في معرفته العميقة.. فهو قد غاص في بحر القرآن والعترة، واستخرج اللألئ الفاخرة والثمينة وقدّمها إلىٰ عشاق المعرفة الدينية.. وكان رفيقاه و سلاحاه في ذلك الإخلاص والايمان.. وقد عمد إلىٰ إطلاق تراثه المبارك في مسار الزمان، ثم طوىٰ ذلك ودائرة الحوزة العلمية في مشهد المقدسة وروىٰ الجمّ الكثير فى طلاب المعرفة الدينية... ولاريب في أنّ من الأفراد من شمّروا عن سواعد هممهم في انتقاده ومواجهته.. وكان بعض النقد ناظراً إلىٰ مسار مدرسة معارفه السلبية، فيما كان البعض الآخر ناظراً إلىٰ المسار الإيجابي.. وبتعبير أدقّ، المحصّلات المعرفية للميرزا الإصفهاني.. وواضح أن هذا العالم المتحرّر والحكيم لم يكن ليدّعي لنفسه العصمة وعدم الخطأ، وأنّ ما توصّل له غير قابل للنقد.. ولكنه قد ترعرع تحت مظلّة علماء كبار.. وانطلق كأسلافه.. فكان يرىٰ نفسه سائراً علىٰ خطىٰ شخصيات علمية فذّة، مثل الشيخ الانصاري والعلامة الحلي والشيخ المفيد والشيخ الصدوق وآخرين.. وكان يعلم أنّ ما توصّل إليه وعرضه هؤلاء الأعيان لا يمكن أن يكون آخر المطاف ولا منتهىٰ الرأي ولا هو منزّه عن الخطأ.. وأنّ المنزّه عن الخطأ هو «العلم الحق»، وأنّ ما له القيمة الحقيقية هو السعي والجدّ في إطار بلوغ العلم واختيار الطريق الصائب في خضم هذا السعي.

إن الميرزا الإصفهاني مؤسسٌ لمنظومة معرفية قائمة على اساس العلم القرآني و ميراث العترة النبوية.. وهكذا منظومة لا تجد بُدّاً من التعامل مع بقية الاستنتاجات البشرية.. والمسألة المهمّة هي طبيعة هذا التعامل والموقف؛ حيث الانفعال، أو التسليم، أو المواجهة والانتقاد، أو الاختيار، أو المواجهة السلبية.. وإنّ طلاب هذه المدرسة لا خيار لهم إزاء التدافع العلمي مع أنواع المعرفة الأخرىٰ، لاسيّما ظنون المعرفة النظرية للدين.

إنّ بقاء واستمرار كل منظومة معرفية رهين تماماً بمستوىٰ وطبيعة القابلية علىٰ الإجابة علىٰ التساؤلات، وتوفير فرص التأمّل لطلاب المعرفة.. وإنّ قافلة المعرفة تتقدّم دَوماً وتتوقّع لأولئك المعجبين والمريدين المدرسة الميرزا الإصفهاني في المعارف الإلهية؛ أن يعتبروا هذا التراث القيّم فرصةً لعرض الاستنتاجات الحديثة في ساحة المعرفة الدينية للأجيال اللّاحقة..

المصادر

*القرآن الكريم.
١. الاصفهاني، الميرزا مهدي، **أبواب الهدىٰ**، تحقيق: حسين مفيد، طهران: منير، ١٣٨٧ ش.
٢. ـــــ **معارف القرآن**، نسخة خطيه لعلي أكبر صدر زاده.
٣. ـــــ **إعجاز نامه**، نسخة خطية للمؤلف.
٤. حكيمى، محمدرضا و محمد حكيمي وعلى حكيمي، **الحياة**، قم، دليل ما،١٣٨٥ ش.
٥. الكليني، محمد بن يعقوب، **الكافي**، طهران، دارالكتب الاسلامية، ١٤٠٧ق.
٦. قهرماني، أفضل، «**زندگي نامه آية الله ملكي ميانجي**»، سفينه، عدد ١، شتاء ١٣٨٢ ش.
٧. المفيد، محمد بن محمد، **الأمالي**، قم، مؤتمر ألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ ق.